الافتتـــاحيـــة

أ. محمد الشريف عباس
وزير المجاهدين

استهدف الاستعمار الفرنسي الاستيطاني في بلادنا اللغة، كما استهدف باقي مكونات الشخصية الوطنية، وحاربها لسانا، وكتابة، ومنع تداولها من التخاطب بين الناس بشتى الطرق، وفي الدراسة والتدريس، والتأليف والعبادة، واجتهد في إحلال لغته الفرنسية محلها، وسعى إلى تمييعها، فعوَّض الفصحى بالدارجة، وفرض العُجمة، والاستهجان اللغوي قاعدة لإفساد ما بها من بلاغة وجمال بهدف إقصائها عن مجال التفكير، والتأمل، والتعبير والتبليغ، حتى لا تسهم في تفعيل حركة الإبداع والإنشاء والتجديد، في مختلف فنون المعرفة والعلوم.

وهذه إحدى مواصفات الاستعمار الاستيطاني، الذي يحمل مشروع إبادة الآخر، وإخراجه من حركة التاريخ، وإفراغ ذاته من جوهرها وفي مقدمتها اللغة، فاللغة في الأمة هي المستغرق الحقيقي لماهية الذات، وتاريخها وجغرافيتها، ومرتكز انبعاثها المتجدد الديمومي، بل وعلة وجودها.

ومن بؤس النظرية الاستعمارية، وحقدها، أن ربطت وجود الاحتلال واستمراره في بلادنا، بزاول اللغة، واستعباد الإنسان، وتمييع معتقده، وربطه بالخرافة والدروشة.

ولكن إرادة الحياة لدى شعبنا كانت أكبر من الموت الاستعماري. إذ أدرك الشعب، وأدركت طلائعه الوطنية والإصلاحية، خطر الإبادة، وفهمت أبعاد المشروع الاستعماري، فجعلت من تعلم العربية، وتعليمها، قضية حياة أو موت، فرفعت التحدي والاستبداد، بتحدي آخر أكثر منه استماتة، وتصميما، بفتح المدارس الحرة، وإصدار الصحف والمجلات، وإطلاق المنابر، وإرسال البعثات العلمية، إلى الأقطار

التي تتوافر على معاهد وجامعات، تدرس العربية وعلومها. وتطوع كتاب العربية للتأليف بها والتعامل معها، كلغة حية تستوعب انشغالات عصرها وتواكب حركة التجديد.

فعاشت العربية طيلة عهد الاحتلال البائد، في خضم المعركة، كصخرة سيزيف، وكانت تهمة خطيرة، دون ذنب، يلبسها المحتل لكل ذي مروءة ووطنية، يرى فيها كابوسه الذي يقضُّ عليه مضاجعه، ويرى فيها القتيل الذي يأبى أن يموت، والعاصفة المؤجلة، تنتظر شرارة البرق، القادم من فجر نوفمبر. لذلك استصدر بحقها ترسانة من الموانع والقوانين الزجرية الجائرة للقضاء عليها، فأبت إلا أن تحيى، هازئة، بكل الدسائس والمؤامرات، ساخرة من تجديف المجدفين، الراجمين الحقيقة بكلام الإفك، زاعمين بأنها ليست لغة علم، وأنها سببا من أسباب التخلف، ونسي هؤلاء أن لغات ميتة، بعثتها إرادة أبنائها إلى الحياة، بل وإلى الإبداع واستيعاب علوم العصر والتكنولوجيا، وتناسوا أن العربية التي تتهم بالعقم، هي واحدة من أثرى لغات العالم بالدلالات، وإحدى أغناها بالاشتقاق والاستدلال، تمكنت خلال القرنين الأولين للهجرة، من أن تستوعب علوم كل الحضارات الدارسة السابقة، وتحفظها، وتنقلها بما هي عليه، وبما استجد في مجالات الطب والهندسة، والفلك والرياضيات والجغرافيا والكيمياء، فضلا عن الفلسفة والآداب، والفنون والفقه وعلم الكلام وما إليه.

هذه اللغة المعبرة والمترجمة لحضارة إنسانية، كباقي حضارات العالم الأخرى، سادت في التاريخ الحديث، وأوصلت التاريخ الإنساني القديم، بالمعاصر، وكانت المرتكز العلمي والفعلي لحضارة الغرب الحالية، وإحدى أسباب نهضته.

والعربية اليوم في الجزائر سيدة في موطنها، عزيزة لدى قومها، تخرجت بها أجيال منذ استرجاع السيادة والاستقلال، تفكر وتبدع بها، وهي متفتحة على كل لغات العالم دونما عقدة أو قصور.

وقد أضاف السيد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أبعادا أخرى باللغة العربية إلى الخطاب السياسي والفكري والثقافي في بلادنا.

والعربية لا تؤاخذ عليها المآخذ لذاتها ككل اللغات، إنما يسأل عن أحوالها أهلها. فبتطورهم تتطور، وبتخلفهم تقبع منتظرة طارقا بابها من جديد، ليأخذ بناصيتها نحو سنى الرفعة والرقي.

ويكفيها فخرا أنها لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنة.